رواية

قتلانا في الجنة

هبة خالد اشقيفي

قتلانا في الجنة

جاء عمرُ بنُ الخطابِ، فأتى الرسولَ فقال يا رسولَ اللهِ! ألسنا على حقٍّ وهم على باطلٍ؟ قال: (بلى). قال: أليس قتلانا في الجنةِ وقتلاهم في النارِ؟ قال: (بلى) قال: ففيمَ نُعطى الدنيَّةَ في ديننا، ونرجعُ ولما يحكم اللهُ بيننا وبينهم؟ فقال: (يا ابنَ الخطابِ! إني رسولُ اللهِ، ولن يُضيِّعني اللهُ أبدًا).

ثم عاد الكرّة مع أبي بكر وكان منه الرد نفسه

فنزل القرآنُ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالفتحِ. فأرسل إلى عمرَ وأقرأَه إياهُ. فقال: يا رسولَ اللهِ! أو فتحٌ هوَ؟ قال (نعم) فطابت نفسُه ورجع.

اللهم إنا نسألك الفتح في جبل الزاوية وغيرها

رحم الله عمر في عدله محكمة وفي لباقة ألفاظه مدرسة

أقول قتلانا في الجنة ولم أشأ أن أزيد على مَن هو أشرف وأقوى وأقرب إلى الله مني فأقول شهداءنا أسأل الله أن يكونوا كذلك كما أكمل وقتلاكم في النار ولأنه الفاروق رضي الله عنه لم يقل فيكم إلا قتلى فلن أبدّل القول بمَن فقدتم احتراماً لخلق الله وامتثالاً لأخلاق نبينا واصحابه.

قتلانا في الجنة

إهداء:

إلى المنكسرة قلوبهم

(١)

-متنا إذاً؟

-لا يا عمر بل من اللحظة التي بدأ فيها صعودنا بدأت حياتنا الحقيقية حياةً مخملية نقية كطفلٍ لامس جسده الناعم صابون حلب الغار

حياة بيضاء يتمايل الياسمين الشامي على أجفانها

حياةً زيتية وزيتونية شامخة كالتي شاخت في إدلب وعزها في ريعان شبابه وقد توقف عن الكبر

لقد عشنا يا أخي منذ أن متنا

-ليتنا متنا قبل ذلك ولكنني أتألم لحال أمي المسكينة ونار الفقد تتأجج داخلها وقد كسرتُ بموتي هيبة أبي ثم تخبرني بمستقبلي هنا

-تعال أسألك سؤالاً وتجيب بدقة!

-قبل أن تتزوج أمك من أبيك وقبل أن يفكرا بإنجابك أما كان عندهم من العلم أن يعرفا بيوم موتك

-لا أعتقد وإن وقع ذلك بالفعل فلا أظنهم يأتون بي منذ البداية أم ترى غير ذلك يا بلال

-لا يا عمر هما يعرفان فمنذ بدء البشرية عرف الناس أن الموت كأسٌ سيشرب منه كل واحدٍ شاء أم أبى ولكن المجهول في الأمر هو التوقيت والطريقة

-وما سبب ذاك البكاء والنشيج فصوت أمي لا يزال يسكن رأسي ثم دمعات أبي الصامتة تزرف في قلبي الجاف حتى الآن

-هما لا يبكون على رحيلك كما تعتقد

هما يبكون أنفسهم يرثون أرواحهم يشيعون آمالهم كل ما في الأمر أن فقدانك ذكرهم بأحزانهم فأكملها

-هكذا إذاً لو صار بهم مثلي وكنتُ مكانهم أتراني أبكيهم أم أبكي نفسي

-الآن تجد في حالتك ما يثير البكاء ويهيج الأوجاع

-للصراحة لا بل أجد الراحة التي تعبتُ قبلها أجد نفسي في تلك المنطقة بيد أن الغيمات تؤنسني ومن تحتي يطلع القمر ثم تبادله الشمس المكان على التناوب من تحت ناظري والهدوء هنا راق لي كما لم أهنأ من قبل حتى طائراتهم القذرة صرتُ فوقها وتلك النجمات الباكيات المنكسرات لطالما كلمتهن وأنا حي وأخبرتهن عن المجازر والضحايا وما كان منهن إلا أن يتصدع لمعانهن وكأنهن لا يعرفن من المواساة سوى التعتيم

-لو كنت مكان أهلك الآن ستحزن على نفسك ولا أحد غيرك جديرٌ بذاك الحزن

-بـلال ...أتحسـب أننـا سـنرى الله كمـا سـمعنا مـن زوجـة المـدير بـالأمس حيـث قالـت بصـوتها شـبه الرجـولي كيـف سيلقى وجه ربه إذاً لا بد من أن نلقى وجهه

-سنفعل وقد فعلنا على أية حال

-كيف!!

لا لم نره حتى الآن ربما لم نمت بعد

-بـل رأينـاه قبـل أن نمـوت وربمـا كنـا أمواتـاً فـي تلـك الحيـاة رأينـاه فـي خلـق شـجرة السـرو الكبيـرة خلـف منزلنـا تلك التي كنا نختبئ وراءها منتفعين بظلها ونحلم

رأينـاه حـين ماتـت جميلـة بـالأمس تلـك الطفلـة التـي أصـابتها الرصاصـة فـي حافـة قلبهـا وبعـد أن نفضـت يـدها وغـادرت روحهـا جسـمها البـارد عـادت إليهـا الحيـاة كمـا يسمونها وكأن موتاً لم يمسسها قط

رأينـا الله فـي زرقـة البحـر ورأيتـه فـي عينَـي أمـي حـين سـحبتني مـن تحـت الركـام ترمقنـي بتلـك النظـرة الثاقبـة كـادت نظرتهـا أن ترجعنـي لـولا أمـر الله أي خلـقٍ هـذا وأي خالقٍ أبدع من ربك ثم تتعجب من كوني رأيته

-بلى ولله لقد رأيناه

(٢)

-كفاك ندباً وتعذيباً فقد شاء ربكِ أن يسترد أمانته

-قطعتان من قلبي أمانته لا بل قلبي كله

-لن أسمح لكِ أحبيهما وابكيهما كما تشائين لا حرج فهما والله كل ما كان لنا من السعد ولكن قبل أي شيء احمدي الله واستغفري ولا تنسي بلحظة نعيم الصابرين

-أستغفر الله اللهم قد رأيت مني الضعف وقلة الحيلة فساعدني يا الله

-إنما أشكو بثّي وحزني إلى الله تقبل الله ولدَينا شهيدَين

-أم بلال تعالي معنا لنقيم جلسة ذكرٍ لله نسأله أن يتقبلهما من الشهداءً

-امضي مع سلمى واستهدي بالله ولا تنسي أننا لله وإنا اليه راجعون

-نحمده ونستعين به انتبه لنفسك ولا تخف على زوجتك فالحزن يقسم الظهر وألم الفراق عصيب ولكن الإيمان بالله وأحكامه أقوى

-أتدري كم أحبك

استغربت ليلى من كلمته تلك بقلبها المنكسر وبعد الذي كان من القصف والدمار والدماء بعد أن فقد ولديه فرحته الأولى يقولها!!

ذهبت ليلى مع سلمى ابنة عمها حيث اجتمعت النسوة في بيتها يؤدون واجب العزاء والمواساة وقد كانت بينهم حيث لم تكن شعرت وكأن منزلها سقفٌ بلا جدران حاولت أن تبكي وثمة دمعة لم تنزل طرق قلبها ينبض ببرودٍ وثبات راحت عيناها تتسع وتذبل وشفتاها تتقلص كما تفعل روحها

أما راجي أبو عمر فقد ألزمه جيرانه وأقاربه أن ينزل إليهم وقد عزموا على بدء مراسم العزاء لا يأبهون بتلك الطائرة الحربية اللعينة التي تحوم فوقهم حتى

قذفت سمها فوق رؤوسهم، أمام أبصارهم لتُهدم منازلهم عن بكرة أبيها وينجوا من ذاك الكابوس بأرواحهم بأعجوبة لا تصدق

-راجي أين أنت أيسمعني أحد!!

راحت ليلى تسأل بذعر وتنادي بصوت مكبوت فقد دفنت كل كلماتها في حنجرتها المكبلة

وعلى بعد محدود كان راجي ينادي هو الآخر هائما على وجهه يتغمّده الخوف

-سلمى أنت بخير؟

أين ليلى

سلمى أرجوك لا تغمضي عينيكِ

إياكِ والموت ليس الآن على الأقل انهضي من فضلك

بــلا أي جــواب حتــى كــاد يجــزم بأنهــا ماتــت وتركتــه ليبحث عن زوجته بمفرده

نقلهـا وهـي تلقـط أنفاسـها كطيـرٍ ضـعيف قـد كسـرت للتـو أجنحته وعطش في صحراء

الصوت لا يفارقهم وكأنه استمر لأعوام

كان يردد راجي في سره

-كيــف أخبرونــا أن مَــن تقصــده القذيفــة وتنفــذ الطــائرة حملها فوقه

لا يسمع دويها تباً لهم كاذبون

-ليلى أنتِ هنا إذاً!!

الحمد لله

قلـب تلـك الامـرأة المغبـر ثوبهـا البنـي كـاللون الـذي ارتدتـه ليلى في الليلة ذاتها

-عذراً أختاه فأنا... دعيني أسعفكِ الآن

وما يقصد بالإسعاف هنا!!

كـان ينقـل كـل مَـن ارتطـم فيـه قـدره بضـعةِ أمتـاراً بعيـداً عن الركام

صـرخ حتـى كـاد أن يفـرغ كـل مـا فـي جوفـه إثـر صـوته المرتفع

-أين أنتِ ليلى ردي

فجاءه صوت أنثوي مختنق قد حفظ نبرته

-راجي أنا هنا

ركضت إليه بخطوات تشبه تلك التي يحبيها طفل في مرحلته الأولى من تعلم المشي

وبعد رحلة السفر التي أوصلتها إلى زوجها بميترات يمكن عدها قالت بصعوبة

- كيف نجونا!!

-أتسألين زوجكِ المسكين وكأنني أعرف حتى أجيبك ما يهمنا أننا نجونا ولندع الباقي لله

صرخ بصوتٍ عالٍ سمعه مَن كان حيا عموماً ما كانوا كثرً

-فلنغادر الآن قبل أن

وقبل أن يكمل جاءت الطامة الثانية

أوقعته أرضاً وليلى من بين يديه تفلّتت وشخصت عيناها وهي تردد الشهادتَين بصوتٍ مجروح

زادت العتمة مع القذيفة الثانية التي زادت من عدد الضحايا ليبقى ثلاثة عشر ناجيا من ذاك الجحيم

استجمع راجي قواه وراح ينادي بصمت

-أهناك أحياءٌ بعد!

فترد عليه ليلى وترد له روحه

-راجي أنا بخير وأنت!

-لم أمت حتى الآن

وحركت سلمى أصبعها مع شفتيها تحاول أن تنطق وما كان لها أن تفعل فقد أصيبت بشظايا في رأسها

وأثر ذلك رافقها شلل في الأطراف وثقل الكلام على لسانها ربما هذا ما أصاب راجي وليلى في بادئ الأمر

-تعالي معي نتعاون على انتشال سلمى من الموت

-لن أقدر

-بل تقدرين لا تيأسي فإن الله معنا

لم تقدر ليلى على الكلام فقد كانت محملة بشعورَين ثقيلَين تفرح لسلامة زوجها بعد تلك العاصفة العاتية وتحزن لما فاتها من فرص مرتين كادت أن تلحق بحبيبيها عمر وبلال ولكن الأقدار عرقلت الطريق

نهض كل من كان فيه روحا لم تذهب لبارئها بعد ومن أجل غريزة البقاء التي تحرك كل ساكن تحاملوا على أوجاعهم وهربوا من الموت

تمكّن راجي وليلى من سحب سلمى إلى مكانٍ تحت الأرض وربما فوق الأرض وظنوها فوقه لكثرة الظلام والرعب داخليهما

-السلام عليكم

قالها راجي بصوتٍ يرتجف برداً خوفاً وحزناً فقد صدمته لا بل زادت من صدمته الأولى تلك القذائف والصواريخ التي لا والي لها

فرد عليه عمران الطفل الجميل بعينيه الزرقاوين وأكثر ما زاد من رقتهما وجمالهما ذاك الدمع العصيّ وكأنه دُفن في مقلتيه منذ زمن وما شاء له الله أن يُردم بالكامل

-وعليكم السلام عماه ضعها هنا إنها بخير لا تقلق

طفلٌ يهدّئ من روع رجل ويخبره ألّا يقلق أبعد هذه الرجولة رجولة!!

-سأفعل يا بني

ثقلت الكلمات على قلب راجي قبل لسانه فعمران بسن عمر تقريباً وله من الملامح ما تشبه تفاصيل ابنه أيضاً سارع كل مَن هم لجأوا إلى المغارة وساعدوه في رَكنها كعجَلةٍ تعطلت في منتصف الطريق ولا بد من تصليحها

-سلمى انهضي يا ابنة العم إنني أنتظركِ على الرحب يا رفيقتي

-ليس الآن يا ليلى دعكِ من هذا ستفيق إن شاء الله اطلبي من النسوة بعض الماء حالاً

-ألدى إحداكنّ ماءً لأمرٍ ضروري فيه موت أو حياة

لا وتقولها حياة وبكل ثقةٍ تلفظ حروفها المسكينة كانت تظن أنها تعيش حياةً كالحياة على بساطتها فهمتها دلال

-تفضلي هذا ما خرجتُ به من بيتنا وبتعبيرٍ أدق هذا ما تبقى من شيءٍ كان اسمه بيتنا

-لا عليكِ ستُفرج بإذن الله

-راجي خذ هذا الإناء ربما ينفع

غسل راجي قطعةً قطنيةً قد أخذها من كمّ قميصه وغسلها من كل شيء الغبار والدم من الخيبة والقهر نظفها إلا من الانكسار وهشاشة الروح ثم ناولها لسعيد الذي درس في معهد التمريض لسنةٍ ونصف لتفتح عينيها على مشهدٍ غير الذي غادرها وعيها فيه

-أين النسوة التي كانت تندب وتلطم ثم تردد التسبيح والاستغفار وتدعي من قلبٍ قد كسره الظلم وأحرقته الحرب

كيف تبدّل مظهر ليلى للأفضل لا بل للأسوأ في حقيقة الأمر لا تعرف إن كان ثوبها الذي تحول من البني الغامق إلى بياضٍ تعلوه حمرةٌ كانغماس جمرةٍ ملتهبة في جبلٍ من الثلج

أهذا تحولٌ إيجابي!! لا داعي للخوف فقد اختفى السواد على أية حال

ها إنهم رجالٌ هنا وهذا كتفي الأبيض أتراهم يلاحظونه كيف لي أن أستلقي أمامهم وكأني في غرفتي على سيرة غرفتي كانت هنا قبل قليل أين هي الآن

ثم مَن هذه التي أمامي تقف على رأسي بجانب ليلى وكأنها علاقةٌ تربطني معها لحظة.... كل هؤلاء النساء اللواتي يقفنَ بانتظار حركةٍ مني يبدو مظهرهنّ كأنهنّ على استعداد لينطلقوا في الحرب بأي لحظة

يا إلهي عمر أنت هنا يا صغيري اشتقتُ إليك

سارع راجي يطمئن ليلى على ابنة عمها الغارقة في دمها

-الحمد لله يا ليلى قد بدأت تفتح عينيها وانتظم نبضها هكذا يخبرني سعيد

-الحمد لله سأخرج إليها حالاً

-ولكن من بين الرجال!!

كل تلك الظروف الصعبة التي مرت على راجي وسكان الجبل أجمع لم تؤثر ولو بذرة على حبه لزوجته وغيرته عليها

وهذا ما أعجب نساء تلك المغارة التي تشبه القبر حيث اتخذ كل من الفريقين رجالا ونساء موقعين منفصلين والتجأوا فيهما فردت إحداهنّ ضاحكةً بألم وقد تاهت الضحكات أثناء عبورها لشفاه أهل القرية عامةً فقد طال بهم الشقاء

-أتغار على زوجتك وكأننا في جنة ممَن تغار!!

من أولئك الصبية خارجاً صدقني قد عميت عيونهم فما بقي لهم من بصر إلا البصيرة التي تمسّكت بالبعض

-لا أقصد الغيرة ولكنه الأفضل أن تكون معكنّ

-بل نكون معها

خرجت مع باقي النساء تطمئن على سلمى التي فاقت من غيبوبتها لبضعة ثوانٍ ثم ما لبثت ان عادت إليها مجددا فما وجدت ليلى أي تغيير طرأ على حالتهاً

-هيا يا سلمى فقد أطلتِ القيلولة هذه المرة

(٣)

-أتذكر يا بلال يوم مولدنا

-أذكر فإننا قدمنا تلك الحياة في يومٍ ماطرٍ عصفت فيه الرياح وهطلت الأمطار وكأنها الليلة الشتوية الأولى التي شهدها الجبل

-نعم فقد شعرتُ بطعنات البرد من اللحظة الأولى التي نزلتُ فيها من جنتي أظنها تشبه لحظة نزول آدم للأرض

-كذلك أنا إلى أنني لم أشعر بالبرد وحسب بل اجتاحني شعورٌ بالندم كيف لي أن أغادر ذاك الركن الهادئ الدافئ لأليث في مكانٍ ليس مكاني وزمانٍ لغيري ومع أشخاصٍ لا أشبههم ولا يشبهون روحي

-ثم بدأ الجمال

-أي جمالٍ هذا الذي بدأ يا عمر !!أتقصد الحلوى التي وُزّعت لقدومنا أم الملابس الزرقاء التي انتظرتنا

-لا أقصد كل ما عشناه قبل أن يتوقف التاريخ ذلك الجمال عينه

-ومَن أخبرك أن التاريخ قد توقف!!

-لا أعني تاريخ البشرية أقصد تاريخنا نحن في جبل الزاوية

-ربما لي رأيٌ مشابه

-لا بل عندك لا ريب

-قد عشنا أياماً مليحةً بالفعل

-مجرد أن تتذكر تلك الأشجار الصغيرة التي صارت مسؤوليتنا وصرنا المؤتمنين على رعايتها أذكرك حاملاً إبريق الماء الأحمر وتركض رافعاً سفل سروالك تنادي سأسقي "النصبات" لا تلحقني

-وحالما أسمع منعكَ إياي من اللحاق بك أركض إليك كما لو أنك تناديني بإلحاح ونضحك بعدها بطفولة

-نضحك فقط!

-لا بل وتركض خلفي وبيدك الإبريق وقطرات الماء التي تتطاير بنسيم الجبل وقد صوّبتها على ظهري فكان لا يأتيني منها إلا القليل

-سأعود بك لما قبل ذلك بكثير

-وعندي في أرشيف الذاكرة ما يكفي لاستعادته ومن الشغف ما يجعلني أستعجلك في الكلام

-السيرة الذاتية المصغرة أتذكرها كنتَ من حصة أبي وكنتُ من نصيب أمك

-ما أجملها من أيام حين أخبرني أبي باسمي عمر ثم أخبرني سبب تسميتي نسبةً للصحابي الجليل عمر بن

الخطاب وقصّ عليّ بعض مواقفه ورواياته مع النبي صلى الله عليه وسلم

-كما ذكرت لي أمي الكثير من مواقف بلال بن رباح وثباته وتمسكه بقضيته حيث سُميتُ على اسمه

-وهذا فقط ما تعلّق بالاسم أما الهوية التفصيلية فكانت في شرح الإسلام الذي انتمينا إليه بالعقل لا الوراثة ثم الوطن ابتداءً بغرسة بذرة زيتونٍ في حقلنا ولا انتهاء له، أتصدق كنتُ أتلعثم بلفظ تلك الكلمة بحروفها الثلاث البسيطة وطن إلى أنها قضية لا حروف

-وعينا يا أخي منذ الصغر على احترام المقدسات ومن بينهم الوطن بل على رأسهم بعد الدين الوطن

-ثم جاء دور الهدف بعد أن حدّثونا عن الشرف والأخلاق والإنسانية التي رضعناها مع الحليب المضاف إليه حب الكرامة وكره الذل

-ذاك الهدف الذي ظننته كحليب أمنا ثم فكرتُ في الأمر لا بل أهم فالحليب سينقطع في العامين أما الهدف فلا انقطاع له ثم شبهته بالماء إنما هو أكثر ضرورةً فالصائم يصبر على فقده الماء نهاراً كاملاً ولا حياة بلا الهدف

فمـا هـو إذاً أيكـون هـواءً مـثلاً لا حتـى هـواءً لـم يكـن فللهواء بديلٌ صنعيّ والهدف فريدٌ لا مشابه له

-أعظـم مـن كـل مـا ذكـرت الهـدف أسـمى مـا يمكـن للعقـل البشري تصوّره

-نعم والله أسمى

(٤)

-أين أنا ليلى إنه هنا عمر كان هنا

-الحمد لله على سلامتكِ

-لماذا تدورون بهذا الشكل ليلى قفي فقد أزاغ دورانكِ نظري

-لا عليكِ خذي هذا الماء وتصحين به إن شاء الله

-أضيئي المكان فأنا لا أرى وجوهكم كما يجب

-لا يجب شيءٌ الآن أنتِ بخير وهذا المهم ارتاحي وسيكون كل شيءٍ على ما يرام

-عمر وبلال أين يذهبان لله درهما ما أكثر غيابهما

-هما في الجنة ووعدناهما أن نلحق بهما حين يأذن لنا الله

بدا على سلمى التعب الشديد كما بان الخوف على ملامح ليلى فاقترب راجي منها أكثر وهمس في اذنها

-ليلى تعالي معي ريثما يخيط سعيد جرح سلمى

-حسناً جزاك الله خيراً أخي سعيد

-ما أصبركِ يا ليلى ما كنتُ أحسبكِ بهذه القوة

-الحمد لله هذا مدد الله وعلى حسن ظني به يكافئني بالصبر

-الحمد لله أما تلاحظي قد هدأت القذائف

-لا ردها الله فقد أتعبتنا حقاً، أتدري أشعر وكأنني امرأة ستينية أتعبها عبور الطريق

-لنتمكن من العيش علينا أن نجيد النسيان،

أتذكرين يا ليلى أيام خطوبتنا

-لا أعتقد ذلك ولا أجدني جاهزة للنقاش بأمر كهذا، أذكر يوم التقيتكَ للمرة الأولى فكيف لا أذكر أول سعادتي

-أخبريني بالقصة

-أنسيتها!

-بل نسيتُ كل ما قبلها لأكرّس ذاكرتي لتلك اللحظة ولكنني أحببتُ أن أسمعها منكِ

-يوم الأضحى سهرتُ وأهلي طيلة الليل حتى بدأ الناس في المساجد بالتكبير والتهليل وخرجتُ مع سلمى وأختي مليحة رحمها الله وقد بلغتُ يومها العاشرة من عمري ثم تزينتْ كل واحدةٍ منها بحليّها وقصدنا منازل الجبل واحداً واحداً نتلوا عليهم عبارات المعايدة بحبور وحين طرقنا بابكم فتحتَ لنا بوجهك الضاحك وقد انتصبت خدّاك لترتسم فيهما غمازتان خطفتْ كلٌ منهما قلبي من جهة، شعركَ البني المائل للحمرة كان يغازل جفنيّ فراحت عيناي تغمض وتفتح على عجل لترى ذاك البهاء نفسه وبنظرةٍ من عينيكَ العسليتَين وبريقهما

حيث بدت لي على مشارف البكاء ثم لمحتُ فيهما حلمكَ الذي خبأته عن الجميع لسنوات عرفتُ

حينها أني لكَ ولن أكون لغيرك كما أنت لي منذ البداية قد خلقني الله على اسمك وجعلك لي كنتُ سأقول كل عامٍ وأنتَ بخير كما لو أنه شخصٌ آخر قد فتح لنا بابه ولكن الكلمات ظلّت أسيرة حنجرتي فما شاءت أن تخرج ولا أن ترجع وبقينا على هذا الحال حتى صرتُ في العشرين وأنتَ تكبرني بأربعة أعوام جئتَ مع أهلك وطلبتني زوجةً لك

-يا الله ما أجملها قصتنا من فمكِ أتدري لو أننا لا نملك مرآةً في المنزل لكنتُ قد صدقتُ وصفكِ لي وربما غررتُ بجمالي

-ولله كنتَ ولا تزال كما ذكرت لا بل كما لا يسعني أن أصف

-هذا بمنطق القلب أما بمنطق العقل فابن الرابعة عشر لا يملك ذاك الجمال راجي الذي كان أمامكِ يومها أم يوسف عليه السلام!!

-لو لم يكن نبياً لقلتُ بأنك الأجمل في عيني ولكنه أجمل ما خلق ربي وأنت أحلى ما رأت عيني

-جبر الله خاطرك، عندهم كل الحق جيراننا حينما أسموني مجنون ليلى ف والله قد صرتُ مجنوناً بحبك

-بل عاقلاً أكثر من المعتاد

-كما تأمر ليلى محبوبة راجي أتذكرين ليلة زفافنا تلك اللوحة التي رسمتها فغضبتِ تقولين جمّلتَني أكثر من اللازم ولو نقلتني على الورق كما أنا لأسعدتَني أكثر

فما كان لي أن أقنعكِ برؤياي والله إنكِ لأجمل منها وما تعلّمتُ في الفنون كلها كيف أرسم جمالاً يوازي شكلكِ

-ثم صار زفافنا بحفلٍ علاه الطابع الريفي في الساحة بين الدكاكين الكل يغني ويرقص والطبول تُقرع وقد سهرنا سبع ليالٍ قبل الزواج عائلات حيّنا شباباً وبنات وأطفال حتى العجائز خرجوا يمرحون معنا ويستذكرون شبابهم فينا

-وحين رزقنا الله بطفلَينا عمر وبلال بعد عام واحد من الزواج في شقة أهلي كيف تجهزنا لتلك المناسبة العظيمة وقد ترقبها أهل الجبل جميعاً صغيرها وكبيرها، كنتُ كلما مررتُ بالحي قاصداً مرسمي لا أنفد من أسئلة الجيران والأصحاب متى السعد

وأفهم فوراً سؤالهم لأن ولادتكِ وقدوم حبيبا قلبي كان سعدي بكل ما تعنيه الكلمة

كنتُ أتمنى لو أجيبهم بأنكِ قد وضعتِ جنينَيكِ ولكنه ذاك الجواب قد طال إلى أن الله لم يحرمني وإياكِ سعدنا

-ولكننا قد حُرمناه بعدهاً

-لا يا حبيبتي بل استودعناه في مكانٍ أكثر أماناً عند الله فهو أحن عليه منكِ ومني

-اللهم الثبات

-اللهم آمين

وبينما ليلى ذات القلوب المتكسرة حيث حطم ابناها اثنين والقذائف المتوالية تكفلت بالبقية كانت تغرق من رأسها وحتى أخمص قدمها بتلك العيون التي لم تفقد بريقها بالرغم من انقضاء الأعوام العشرين ما زال لمعانهما مستمراً يبث الأمل بأحلام كثيرة والخوف في الوقت نفسه

قاطعت شرودها سلمى بقدح اعتادت عليه ليلى

-ليلى أترين الآن وقت الغرام بينكما

-كيف أصبحتِ!؟

ما أطول لسانكِ حتى وأنتِ بهذه الحالة، أي غرامٍ هذا تركناكِ لترتاحي فبالدواء الذي تجرّعتيه ثمة تخدير

-لا عليكِ صرتُ أفضل

وناديتكِ وراجي تخفيفاً من خوفكما فقد نجوت والحمد لله كما أم أحد الفقهاء في الداخل سيلقننا درساً شرعياً؛ هكذا فهمت

(٥)

-بلال... إنها خالتي سلمى كانت تناديني سمعتها بأذني

-ولكنها بعيدة يا عمر ربما اشتاقت لك لا أكثر

-ربما وأنا أيضاً اشتقتُ لها واشتقتُ لأبي وأمي

-ادعِ لهم ربك لا أن يخفف حِملهم بل يقوي ظهورهم كما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يدعي

-أتمنى ذلك، جبلنا يا بلال قد شارف على الانهيار وهذا أكثر ما آلمني وأنا حي وحتى الآن ما زلتُ أشكو الألم نفسه

-إن الله معنا يا أخي نعم جاءت حربٌ نكراء قلبته رأساً على عقب وصار لهم أكثر مما لنا أنيأس بعد ذلك

-لا والله لن نيأس ما يأسنا ونحن هناك تحت القصف والنار من فوقنا فكيف لنا أن نفعل ونحن في ملاذنا الآمن

-أكثر ما أرجوه أن يربط الله على قلوب أهلينا في جبل الزاوية التي احتلت زاويةً من القلب ومثّلت زاويتها جل القلب

-عندهم من الشجاعة ما يجعلهم أقوى مما نظن

-شجاعةٌ وقوة إيمان ولله لن يضيعهم

-سأصلي وأدعو عل هذا الكرب يستحيل فرجا

-أتذكر يا عمر حين علمتكَ أمكَ الصلاة كما فعل معي أبي

-حينها أخبرتني بأني أقيم فيها الدين فإنها عمود الدين من تركها فقد خرج عن ملة الإسلام جملةً وتفصيلا

-وهكذا قال أبي وقام يصلي أمامي بينما كنتُ أراقب حركاته بتركيزٍ شديد وجدتُها صعبةً أول الأمر

-كذلك أنا لقيتُها من أصعب المهام التي ألقتها أمي على عاتقي

-كان يخبرني بأن الطفل لا يتعلم من أبويه بل يقلّدهما

-معه حق ذاك العظيم أبي يا الله كم اشتقتُ لضحكته وحضنه

-واشتقتُ لغضبه الذي ينتهي غالباً بابتسامةٍ معتقلة ومتمردة في الوقت نفسه

-كان يحاول أن يلومنا ويربينا ولكن قلبه دائماً يعصيه فيجعله يبتسم آخر الأمر

-ثم إنه الغضب القصير قد فادنا بالحقيقة رغم الابتسامة التي تلحقه

-دعنا نرجع لذكرياتنا مع أول علاقتنا بالصلاة وتعلمها ف والله أجمل أيامي تلك

-شعرنا وقتها بالمسؤولية فصرنا منذ اللحظة تلك رجلَين لا طفلَين يحملا قضيةً في قلبَيهما ورأسَيهما

-أجل فحين أخبرتني أمي ألا أصلّي صلاة الحركات فهي تشبه لغة الجسد عند الغرب أكثر من صلاة المسلمين لم تكن تمارين رياضية وحسب بل إنها القضية التفصيلية

قالت يومها حرفياً أن عليك أن تحضر قلبك مع سجادة الصلاة وتسخّر جوارحك كلها للحياة مع الصلاة ركّز وأنت تصلي كما تركّز في الإجابة على أسئلة الامتحان في المدرسة على أقل تقدير

-وأمرني أبي وقد أمره الله وإياي أن نسارع للصلاة ونرتّب مواعيدنا على أوقاتها لا العكس فحين قلتُ في سري أنني

-سأصلي العصر بعد أن أغلق التلفاز فرد ينصحني وكأنه قد سمع ما جال في خاطري

-بل ستغلق التلفاز قبل أن تصلي العصر

فقلتُ أتذمّر

-وما الفرق في ذلك يا أبتي

-الفرق في أن تكون الصلاة أمراً ثانوياً في جملتك ويكون التلفاز من أولوياتك وفي جملتي فللصلاة أساسٌ وما بعدها كله فرعي

-منـــذ ذلـــك الحـــين وكلانـــا ينتظـــر الأذان فـــي المســـجد وبالكاد ينتهي المؤذن حتى نبدأ صلاتنا

-ما أعظمه من بين الأديان وما أعظمه من بين الآباء

-أتدري ما يقلقني يا بلال وما يرهقني حقاً

-هات ما عندك

-على قدر النور الذي نعيشه هنا أجد ظلاماً عند أهلك

-استودعهم عند الله

-فعلتُ قديماً وحتى الآن وأنا أستودعهم عنده

-حسبك يا عمر أتخشى على أهلك وهم ودائع عند مَن لا يضيّع ودائعه

-سيصبح الجميع بخير إن شاء الله

(٦)

-السلام عليكم أيها الأخوة والأخوات الكرام سكان جبل الزاوية بعد ثنائنا على الله وشكره فإنني أود أن تعيروني سمعكم علّ كلماتي تداوي جروحكم

فالصبر الصبر يا آل الجبل وقد سبقكم إلى هذا الكثير من الناس بأريافٍ شتى وبمدنٍ كثيرة وقبل ذلك كانت الشعوب في حروبٍ عديدة منها الأقوى ومنها الأضعف من حربنا

ثم إنه جل جلاله ذكر حالنا في مصحفه الشريف بسم الله الرحمن الرحيم "لنبلونكم بشيءٍ من الخوف والجوع ونقصٍ في الأموال والأنفس وبشّر الصابرين"

يبشركم الله بقوله إن صبرتم فكيف ترى أمتنا أن نُسجل من الصابرين ويا لبشرانا أم نجحد نعمة الله ونضيق ذرعاً بأقداره وأحكامه فويلٌ لنا حينها ألم يقل سبحانه وتعالى "ومَن أعرض عن ذكري فإن له معيشةً ضنكا"

وقال في كتابه الشريف أيضاً "ولسوف يعطيك ربك فترضى"

أوَ ينسانا وقد تذكر الجنين في رحم أمه برحمته فكيف يمكن لعقولنا أن تظنه ينسانا في قطعةٍ من الأرض بلا أمن ولا نصر

من اليوم أيها الناس قد كتب الله علينا الجهاد وكلّفنا به بلا استثناء وها هم أخوتنا من أقصى الديار جاؤوا لنصرتنا أوَ نقعد متقاعسين ويا قوم لسنا منكم!! أمرنا الله بالجهاد كما الصلاة والصيام والزكاة، أرى فيكم الطبيب والمدرّس الفنان والبائع تجاراً وخياطين نجارين وسرّاجين خبراتكم مختلفة وهذا عين الطلب سنجاهد كلٌ في عمله وسعة علمه والأهم من ذلك أننا سنحمل السلاح جميعنا وحتى النساء إن تطلّب الأمر، أراضي المسلمين قد مسها الضر فماذا نحن فاعلون

-نحن لها مولانا الشيخ وكلنا لنصرة أراضي الشام المقدسة

-بارك الله فيكم جميعاً فلنمضِ على بركة الله

قصدت القذائف والصواريخ اللعينة أن تقطع خطبة الشيخ في الناس مراتٍ ومرات إلا إنه أكمل وبصوتٍ أعلى ثم بكى وهو يخاطبهم وبكوا معه فالمصاب أليم والضربة قاسية

ولكنها ليست بالقاضية

(٧)

-أتـذكر يـا عمـر كـم عطشـنا قبـل المجـيء إلـى هنـا ثـم ارتوينا دون ماء ما أعجب أمرنا

-هـذا لأننـا نزفنـا دمـاً كثيـراً فبلـغ منـا الظمـأ وبعـد وصـولنا لملاذنـا صـرخ صـوتٌ مـن أعمـاقي ألا تقلـق فـلا بـأس بعـد اليـوم ثـم لـم يكـن العطـش وحـده الـذي غادرنـا بـل والتعـب والألـم أتسـمع صـوت الهـدم داخلـك كمـا كنـتَ تخبرنـي وقتمـا تنـزل القذيفـة وتضـع البيـوت ركامـاً فتسـمع الصـوت وكأنه فيك

-لأول مـرة يـا أخـي أجـدك لا تجيـد الوصـف، لا تحسـن الشـرح لـم تكـن بتلـك السـهولة بضـعة كلمـات تلخـص حادثة ما وفي آخر السطر نقطة

إنـه ألـم سـنين يـا أخـي وزخـم الحـرب ينمـو داخلـي حتـى لحظـات الهـدوء لـم تـركن معـاركي ولكنـك أصـبتَ إذ عرفت أن شعوراً كهذا لم يعاودني هنا

-الحمـد لله الـذي مـنّ علينـا وأخرجنـا مـن تلـك اللعنـة وإن عجـزت كلماتنـا عـن التعبيـر وخاننـا رصـيدنا مـن الكلمـات فقـراً إلّا إن مـا أحسسـته قـد انتـابني أضـعافه فـنحن التـوائم نتشارك المشاعر ذاتها

- مـا أقسـى الحـرب للحظتنـا هـذه لـم أنـسَ دعـاء التـي ودّعـت زوجهـا بعـد زفـافهم بأسـبوع فقـد أمسـك يـدها للمـرة الأولـى يلبسـها الخـاتم ظنـاً منـه بـأن خاتمـه ذاك سـيربطهما معـاً طيلـة حياتـه ولـم يـدرك وقتهـا أنـه وبعـد أيـامٍ قليلـة سيمسـك مـا تبقـى مـن أثرهـا مـن فـوق الركـام ومـا كانـت إلا يـداً قـد مُـدت إليـه لتصـافحه وتعيـد لـه خاتمـه المُـدمى لتكون قد صارت في عالمٍ آخر بعيداً عنه وعن حياته

-ظـل وقتـاً طـويلاً يبكيهـا بصـمت وأحيانـاً نسـمع صـراخه فـي كـل الجبـل ومـررتُ بـه بعـد فتـرة وجدتُـه يضـحك دامعاً أعانه الله ما أصعب ما ألم به

-أتـراه أبانـا سـيحزن إلـى هـذا الحـد!! أمنـا لا شـك أنهـا تمـوت فـي الدقيقـة الواحـدة آلاف المـرات وهـذا مـا يقتلنـي آلاف المرات أيضاً

-حتمـاً تلـك الفاجعـة لـم تمـر مـرور الكـرام بقلبيهمـا بـل وستترك وراءها قهراً عظيماً وبشائر

-قهراً وبشائر!

-نعـم بشـائر تخيـل لـو أن أحـدهم قـد وعـدك فـي أخـذك رحلـةً إلـى اللاذقيـة والشـاطئ يناديـك كـل ليلـة والسـماء تعـزف لـك ألحانـاً فيروزيـة لتـذكرك بمـا ينتظـرك نسـماتٌ تهـب علـى قلبـك محملـةً برائحـة البحـر هنـاك وقـد سـبقك الكثيـر مـن أصـحابك وأهلـك ينتظرونـك لتكتمـل متعـتهم وبعـد النعـيم ذاك كلـه تأتيـك رسـالةُ تطلـب بعـض أحـبّ أشيائك لتكون قبلك حيثما حلمت كيف تشعر وقتها

-أتقصد اللاذقية قبل الحرب أم بعدها

-حينما تكون المشبه به وفي نفس الوقت فالجنة المشبه فالمقصود من الحديث قبل الحرب بالتأكيد

قد سبقناهما إلى المكان الذي حلموا بالوصول إليه ولا زالوا يسعوا حتى نراهم بيننا

-بالمناسبة إن سبقني ما أحب إلى اللاذقية سأزداد شوقاً للحاق به حيث المنى

-فلتنسَ اللاذقية تلك وخذ الجنة مناك فلا شك أنك ستنتظر بقلبٍ يتشوّق متوهجاً حتى الوصول

-محقٌ كالعادة أعان الله أبوينا فالطريق مليء بالعثرات.

(٨)

كان راجي متأملاً في المعارك القريبة التي حدثهم عنها ذاك الشيخ الفقيه وبشكل خاص بعد أن أخبرهم الشيخ أنه معهم في ساحة القتال وفي الصف الأول

-علمنا يا شيخ كيف نستخدم هذا السلاح فأنا وحيد أهلي وما سبق لي أن التحقت بالجيش

-ومثلك كثر ولكن السلاح قليل فمن لا يستطع حمله فليعمل في الصعيد الآخر إذ لا بد من بناء سكن يأوي نساءنا وأطفالنا أعرف أن من الصعب القيام بذلك تحت هذه الظروف حيث لا يتوفر شيء للعمار والقصف يستمر

-كلنا على استعداد لفعل أي شيء

راحت الرجال يعلم بعضهم بعضاً آلية استخدام السلاح وتم ذلك بفترة ليست بالطويلة

فاق راجي من نومه الذي سبقه الكثير من السهر والتفكير وقد زاره عمر في منامه ثم لحقه بلال كانا سعيدين حتى الصميم رمقهما بعينين تملأهما الأشواق والحسرة استعاد بعض الحياة برؤية حبيبيه وما أيقظه

شـــهقاتها المبعثـــرة التـــي هربـــت إليـــه كانـــت تـــدعو بعـــد قيامهـا الليـل ومـع الـدعاء غالبـاً مـا يترجـل البكـاء قـام إليهـا هو الآخر وبتنهيدةٍ أحرقت أضلاعه

-هوّني عليك يا حبيبتي

-زارانـــي فـــي المنـــام بيـــد أنهمـــا لا يفارقـــاني فـــي يقظتـــي اشتقت إليهما كثيراً

-وكذلك يفعلان معي

رحـم الله روحيهمـا همـا الآن فخـوران بنـا يـا ليلـى وعلـى اطّـلاع بكـل مـا نفعلـه ينظـرون إلـى دمعاتـك ويـؤلمهم سيلها المتواصل ألا تكفي عن إيذاء قلبيهما

-ولله لم أقدر قلبي يتمزق

-إنهمـا يعرفـان أيضـاً كـم تكابـدين فـي الفـراق ويسـمعان مناجاتـك ربـك وأجـدهما يتطلعـان بشـوق وتلهـف لمعاركنـا القادمة

-سيأتي النصر بإذن الله

لـم يكـن متأكـداً مـن كلامـه الـذي كـان مواسـاة لزوجتـه لكنـه أعـاده علـى قلبـه علـه يهـدأ هـو الآخـر ولا بـد مـن اللقـاء وإن طال

ثـم مـا لبـث راجـي إلا بضـع دقـائق مـن الصـمت الـذي أتعـب روحـه فبـدأ يرسـم لوحـة بإبهامـه الـذي يحفـر بـالتراب أمامـه وظلـت ليلـى تتأملـه حتـى انتهـى مـن لوحتـه

الجميلة التي وضحت صورة طفلين بأعوامهما العشر كما فارق ابنيه يضحكان ببراءة وهما يحتضنان والديهما بدت رسمته من أجمل اللوحات التي سبق وأن رأتها ليلى شاركتها دمعاتها ليكتمل المشهد لوحة ترابية بلا ألوان كما أنها ليست بالأبيض والأسود دون ورقة أو لوح خشبي أو زجاجي أو ما شابه ذلك بلا قلم أو ريشة ولكنها حقيقية وهذا كفيل بأن يجعلها أجمل اللوحات الفنية عالميا ومن فوقها الزوجان يتكئ كل منهما على الآخر

-سنبقى معا مهما حدث

رفعت نظرها بمستوى عينيه الغارقتين بسحرها وألمها في الوقت نفسهً

-سنبدو بهذا الجمال!، كم أشتاق اللحظة التي ستحول رسمتك لواقعي

-سنصبر حتى يأذن لنا الله ولن تكون نفوسنا إلا راضية

-يا الله كن معنا حتى نبلغ الوصول

(٩)

كما هي العادة عند كل الخليقة حين يبدؤون بحديث ما بعد الصمت فمحوره غالباً يكون الطقس

بعد العديد من المشاهد والمواقف التي مرت بذاكرة عمر حاول أن يستكشف ما يشغل فكر أخيه بقوله

-طقس اليوم رائع جداً أكثر ما أفضله الربيع المزهر

ظل بلال على وضعيته نفسها ساهما بالأفق أمامه ورد بالطريقة ذاتها

-بالفعل كل شيء هنا في قمة الروعة أما أنا فأشعر وكأننا في فصل الخريف ربما كل منا يراه كما يرغب أن يكون

-هذا أنت حتى ونحن هنا تفضل الخريف على الربيع أنت غريب للغاية يا بلال تشبه أباك ولا أعرف صراحةً ما يعجبكم بالخريف وأنا لا أرى فيه إلا الرحيل والكآبة إذ تنخفض أشعة الشمس فتبدأ عتمة الشتاء في القلوب قبل البيوت ثم تتجرد الأشجار من خضرتها وتعجز في كل خريف دهرا كاملاً

-ألهذا الحد يستفذك!

-لا يستفذني مجرد تعجب لا أكثر فإنني لا أجد أسبابكم لمحبته بينما في الربيع تتفتح الزهور والقلوب وتزدهي الحدائق بهيبتها كما تسمع زقزقة العصافير فتوشك على الرقيص معها الفراشات التي تحوم حول منزلنا وتستقر للحظات على نافذة غرفتي كنت أعشقها وما زلت

-الربيع جميل وإن كنت أميل للخريف أكثر لأخبرك الآن بسبب حبنا لذاك الفصل دوناً عن الثلاثة الباقية لأننا نرى يا عمر في الخريف النهايات وهذا ما قاله أبتي ذات يوم بينما كانت أمي تطرح عليه سؤالك نفسه ولأننا نحن الذين نحب النهايات بصرف النظر عن التفاصيل فترانا أكثر حبا للخريف وهدوئه الذي يجعلنا في حوار مع ذاتنا نحبه أيضاً عواصفه التي تهب فتحمل معها رائحة الأحبة البعيدين

بالمناسبة رائحة القهوة في الشتاء أجمل منها في الخريف وهذا ما نقلته أمي عن أبيك أيضاً

-أو كل هذا الجمال في فصل!! ولكنها البداية التي يحملها فصل الربيع كولادة الصبح من سواد الليل يأتي الربيع من رحم الشتاء المصقع بعد البرد يحل الدفء الربيع جنة الله في الأرض ثم ما كانت نهاية التي حدثتني عنها لولا البداية

-ولا نفع لبداية لا نهاية لها، أتذكر منذ الصغر كنت أتريث وأنتظر ريثما يصفق أبي بيديه معلناً إنهائه لوحة فنية ثم أذهب بعد ذلك لأرى ثمرة جهده بينما

أنت تتعلق في ظهره متكئا على كتفه تراقب الصغيرة قبل الكبيرة كما كانت تفعل أمك إذ يحثها الفضول على التردد كل دقيقة لتعرف أين صار والدك وكم بقي له وما هي خطته وكيف أنجزها

-نعم كنت مشابها أمي وفي ذلك فخري وكنت نسخة عن أبيك

تبدو لي أمي أقل تكدرا ربما كان الوقت كفيلا لنسياننا

-لا بل اكتسبت قوى إضافية ربما ساعدها فقداننا في ذلك ثم كيف يخطر في بالك أن تنسى أم ابنيها!!

لن تفعل مهما حصل حتى مرضى الزهايمر غالباً يتذكرون أولادهم بذاكرة قلوبهمً

-نعم لا بد من قوى جديدة تتمتع بها أمي غيرها تلك التي كانت عندما تنزل القذائف توترها وكأن التشنج يحتل معدتها كما أن وجود أبي معهاً قد أنقذ الموقف أيضا ولله الحمدً

-هذا ما كنت سأقوله أبوك أقوى ويحبها فلن يدعها فريسة للانهيار وهذا يكفي لحمايتها من حزنها ونفسها.

(١٠)

جاءت الليلة الأكثر برودة وخطرا وكانت ليلى تحادث عمران بأعوامه الاثنا عشر وكأنه في العشرين

وقد أعارته اهتمامها وحنانها حيث ذكرتها ابتسامته بابتسامة عمر وبريق عينيه نفسه عند بلال

-أكنت بالمدرسة يا عمران!

-نعم يا خالتي كنت في صفي السادس قبل أن يبدأ عنفهم بالظهور

-لعنهم الله وهل أحببت مدرستك

-بل عشقتها كنت من صغري وقبل أن أبلغ السادسة أتشوق لدخولي المدرسة كان حلمي بأن أصير محامياً ناجحاً يراودني غير مرة

-حلم جميل وما الذي حصل

سألته ببلاهة وكأنها لا تعرف أنه لم يبق للمدارس أثر وأن المدرسين منهم من مات ومنهم من نفد بمعجزة ولكنها لم تقصد بسؤالها المدرسة والدوام بل كان تلميحها على الحلم وهذا ما فهمه عمران بذكائه وسرعة بديهته

-مع وقف التنفيذ ثمة محام ينتظر حتى تضع الحرب أوزارها إن لم أكن أحدها ف حتماً سأكونه بإذن الله

-سأكون وعمك راجي معك في كل خطوة

تدخل راجي في الحديث الذي نال إعجابه كفنان وأخذ عمران من كتفه يسأله بتردد خوفاً من إجابة تصعقه

-أبويك أين يا عمران لم أراك مع أحد منذ وصولنا

بعد تنهيدة خرجت مع انفاس الفتى وقد خبأها بصدره السبعيني الذي لا يكف عن السعال طوال الوقت

-قد افترقا عن بعضهما وأنا في الرابعة وسافر أبي لبلد أجنبي ثم بعد فترة جاءها خبر زواجه لأمي كالصاعقة فقد أحبته أكثر من اللازم كما قالت غير مرة

وبقيت وأمي في بيتنا يزورنا الأقارب في المناسبات وفيما بعد تقدمت لامتحان الشهادة الثانوية ونجحت بتقدير جيد أهلها لدراسة الحقوق وفي عامها الثالث سرقها الموت مني بمرض خبيث

-رحمها الله ما أقوى إرادتها التي نقلتها إليك بالوراثة، ستكمل مشوار أمك وتحقق حلمها أليس كذلك!

-هذا عين ما أريد إن شاء الله

مسحت ليلى دمعاتها وكذلك سلمى بعد سماع قصة عمران التي أثرت فيها حتى النخاع

ثمة حرمان لا بد منه في هذه الحياة وثمة أوجاع تلم بالبشر صغيرهم وكبيرهم بلا استثناء

همست لقلبها بأسى بالغ ثم سألته وما زالت شفتها السفلى ترتجف

-وأين أقاربك أهل المناسبات هل قدم أحدهم معك إلى هذه المغارة!

-زياراتهم القليلة لم تكن لقلة أصل فيهم وربما كانت كذلك إلا أن السبب الأكثر موضوعية هو سكنهم في المدينة وبين المدينة والجبل مسافة طويلة

-إذن زواج أمك من أبيك كان مرفوضا من قبل الأهالي

-لم يكن كما اعتقدت بل زواجاً تقليدياً حيث جاء تعيين والدي كمدرس هنا في الجبل ولمح غير مرة أمي التي تسكن هنا ثم نقل السلطة لأمه أقصد جدتي التي لا سلطة لأحد أمامها وزوجته أمي الجبلية كما كانت تطلق عليها دائماً

-إنّ مدرساً ومحامية سيكون ابنهما محط فخرٍ وعز حتى ولو عاش بعيداً عنهما

قالها راجي بنبرةٍ حماسيّة وقد أخبر نفسه لا أحد يعرف الراحة هنا كلنا نتعذب

وقد أمضى سهرة دافئة بحنان زوجته والطفل الحالم أمامه بليلة ما خلت من القصف والرعب الذي بدأ يتلاشى فقد اعتاد الجميع ذلك الحال

تمدد بعد سيرة عمران يتأمل الجموع من حوله النائم منهم واليقظ ثم دعا في سره

اللهم أبناء الجبل قد استضعفوا وأنت الكريم الذي لا يخيب من قصد بابك فناجاك.

(١١)

بعد أن انتهى بلال من ذكرياته أو بالأحرى أوقفها قسراً إلا إنه عمر لا يزال متسمّراً في مكانه شارد الزهن مثبّتاً نظراته على الفراغ الممتد أمامه فسأله عن سبب شروده

-أحاول أن أجد سبباً واحداً لخوف الناس من الموت إلا إنني لم أعثر عليه فكل ما هنا مرغوبٌ إلى أقصى مدى

-يخاف أحدهم الموت لجبنٍ فيه ليس إلّا؛ فهم ضعفاء للغاية ودواخلهم هشّة كرمادٍ يستحيل هباءً بمجرد عبور نسمة.

-أعي كلامك ولكنني لا أقدر على الاستيعاب؛ كيف لرجلٍ أربعيني مثلاً أن يخاف ما تجرّأنا نحن أبناء العاشرة على فعله

-لأن بياضنا يحمينا من القلق فهو واقٍ جيدٍ لو تعلم

-كيف تربط الألوان بالموت! ما علاقتهما ببعض؟

-ما قصدتُ لون البشرة بل لون القلوب عين ما قصدت النوايا يا أخي الباطن والأفكار التي تراودني ليلاً على الوسادة ثم التصرفات التي نقوم بها كلها تضعنا في مفترق الطرقات فنحن أمام خيارَين إما أن نرغب في الموت أو نرهب قربه

-لكننا لسنا بِيضاً كما يجب

-تماماً كنا نقع في الغلط مرات لشهوةٍ فينا أحياناً وضعف وأحياناً أخرى دون قصد إلا إنه وعينا وإدراكنا بأن رحمة الله قد وسعت كل شيء ساعدنا إلى حدٍ كبير في تكوين نظرتنا حول كل ما حولنا؛ إيماننا بالله وحسن ظننا به زرع فينا طمأنينةً بالغة الجمال فنحن على يقين بأنه سيغفر لنا ما دمنا نستغفره

-ولكن البشر جميعاً في هذا سواء

-لا البعض يا عمر وهم كُثر ربما يستغفرون ويسبحون بألسنتهم غير أنهم في الحقيقة لا يؤمنون بأن الله سيسامحهم ومنهم مَن يخبرك بأنه مذنبٌ حد الضياع ويخجل أن يرجع إلى الله

-معاذ الله كيف لهم أن يأخذوا باعتقادٍ كهذا؛ ألم يقل عز وجل "لغفرتها لك ولا أبالي"

-مَن يملك نفساً ضعيفة يتجرأ حتى على الله

-لو رأوا الراحة هنا والسلام الدافئ لرجعوا برأيهم لا ريب

-سيندمون إذا عرفوا أن الله قادر وما كانوا ليحسنوا به الظنون

-لطالما سمعتُ كلماتك وأعجبتني من أين لك أن تعرف كل هذا؛ أمنيتي يا سيد بلال أن أتوه بأمرٍ ولا أجد عندك الجواب اليقين

-كنتُ رفيق أبي وكان مدرستي فهو كثير القراءة كما تعرف ولا سيما قراءة القرآن وفي الأخيرة ثقافةٌ عظيمة لمَن يفقه

-صدقتَ فأبي رجلٌ أسطوري كاللذين نقرأ عنهم في الكتب والآن حدّثني عن الموت بطريقته

-حين طلبتُ منه أن يخبرني عن الموت لم يعقد حاجبَيه كما كنتُ متوقعاً بل ابتسم ومرر يده على رأسي ببطءٍ شديد وكأنه يهيّئني لذاك الرد الذي أثلج قلبي

-كان يعرف الراحة السرمدية التي نعيشها الآن!

-ليس تماماً ولا بالدقة هذه ولكن حديثه عن الحياة الثانية يشبه إلى حدٍ كبير ما نحن فيه الآن فقد بدأ كلامه بابتسامةٍ مشرقةٍ كعادتها وراح يصف لي الهدف من الحياة ثم ذكر لي آيةً كريمة من القرآن الشريف "وما خلقتُ الإنس والجن إلا ليعبدون"

أخبرني أننا في اختبارٍ ربما يطول ويصعب في بعض الأحيان بنظرنا الآدمي إلا إنه سينتهي لا محالة وبانتهاء الاختبار كما تستلم المدرّسة أوراق الامتحان من تلاميذ صفكم فإنه أيضاً جل جلاله يأخذ أرواحنا ولله المثل الأعلى كما هو الحال في الأولى بعض الطلاب ينجح والآخر يرسب كذلك في الثانية أناسٌ في الجنة وقد ربحت تجارتهم وآخرون خسروا كل شيء فمصيرهم الناس وبئس مثوى الظالمين مَن ظلموا أنفسهم قبل كل شيء؛ يبدأ الأمر ببعض الإجراءات التي تخلف من شخصٍ لآخر والمشترك بين الجميع أن

القلب سيتوقف عن نبضه وضخه للدم ومن ثم يسكن جسدنا في بيتٍ مؤقت تحت الأرض نتحكم في إضاءته خلال حياتنا قبل مرحلة توقف القلوب أما أروحنا فتكون في مكانٍ بعيد حيث تبدأ حياتها الثانية

-ما أجمل كلامه ووصفه؛ كيف كان وقع كلماته على قلبك

-ازداد حماسي وعلت ملامحي ابتسامةً طفولية ثم قفزتُ بطريقةٍ جنونية وأنا ألحّ بطلبي للموت لحظتها فأجابني بالهدوء نفسه "لا يا بلال فالأعمار بيد الله ليست بأيدينا واختبارك لن تخرج منه إلا بإذنٍ من الذي بيده الأمر"

-لهـذا كنــتَ مطمئنــاً يــوم جئنــا هــذا المكــان بينمــا كنــتُ أتصبب عرقاً والشحوب يعم جسدي كله

-ثم هدأ كل شيء أليس كذلك!

-بلى سرعان ما أصبح كل شيء على ما يُرام

-أتدري لأي سببٍ هدأت

-لأنني طفل والله أرحم من أن يعذب الأطفال

-بـل لأنــه الله أولاً وأخيـراً ولأنــه قـد حفظنــا بعينــه التــي لا تنام وشتّان بين حفظه وحفظ البشر مهما حاولوا

-لا إله إلا الله

(١٢)

جاء اليوم الذي انتظره راجي بقلبٍ أحر من الجمر حماساً لبدء الحركة العسكرية بعيداً عن المغارة التي يقطنها مع آلاف اللاجئين مثله فلنحذف كلمة اللاجئين هذه فما زال الجميع بالجبل ولنقل الفارّين لا وهذه الأخرى خاطئة أيضاً يسمى فراراً حين يتغير الحال بينما في مثل حالهم وقد انتقلوا من الخطر لخطرٍ آخر؛ أدق ما يمكن أن يُطلق عليهم اسم المحاصرين فقد حاصرهم الخوف والموت والألم من كل مكانٍ في تلك المغارة هائلة المساحة التي تتسع لمئات بل آلاف الأشخاص.

كان يومه الأول الذي جمعه مع رجالٍ من منطقته وآخرون من مناطق مختلفة تعرف إليهم وهم على جبهةٍ واحد في معركةٍ متعددة الأطراف؛ لم يذكر مَن بدء الهجوم أولاً فالقصف المتجه ناحيتهم لم يتوقف ولا للحظة لذا كان عليه أن يقول بدأنا بالرمي المباشر خلال قذائفهم المستمرة وهو يشرح التفاصيل كلها لليلى التي جلست أمامه وكلها آذانٌ صاغية فكثيراً ما أخافها الهجوم الأول كما فعل مع باقي النسوة وردة الفعل أيضاً كانت محطاً للقلق إلا إن الأمور جرت بخطرٍ أقل مما هو متوقع.

بينما كان راجي جالساً مع ليلى وسلمى يتناولون عشاءهم ظل ساهماً بسالم ذاك الشاب الذي سرقت الحرب وسامته ويبدو أنها سرقت أعظم من ذلك بكثير.

يُخطئ مَن يراه شاباً عادياً نحيلاً إنما هو في الحقيقة بقايا شخصٍ من الزمن الغابر لو أن متحفاً أثرياً قريبٌ منهم لنقله راجي إليه فوراً فقد استغرب عينيه الغائرَتَين منفتحتَين على مدى واسع جداً ومبالغ فيه أما نحول جسمه فيثير العجب أكثر وكأنه هيكلاً عظمياً أشبه بالرجل الآلي في برنامج الأطفال الذي كان عمر من متابعيه؛ لا بشكله هذا لن يضعوه ببرنامج أطفال فمشهده يخيفهم.

ما كان له أن يأتي بحركة بل اكتفى بالمراقبة عن بُعد حتى اقترب عمران ببراءةٍ وطفولة منه يغني

"سالم حبيته والله قلبي وعطيته القلب لك يا سالم والعمر لك يا سالم"

تيقّن عمران بأنه لن يرى ابتسامته بعد أن ينتهي من غنائه فهو لا شك بملامحه هذه قد نسي والابتسام وربما لا يعرفه إطلاقاً ولكنه صدمه وهو يجهش بالبكاء؛ كان دمعه ينهمر من عينَين يشبها تلك المغارة في عتمتها وكبرها وعمقها؛ ارتبك عمران فقد أعماها بدل أن يكحلها هكذا قال في نفسه أي جرحٍ هذا قد سكب فوقه ملحاً بحسن نيته؛ تجمد في مكانه ثم اقترب من سالم أكثر وبترددٍ أكبر وضع يده الصغيرة الباردة ترتجف على كتفه إلّا إنها لم تزد حركته هذه شيئاً ولم

تـنقص فبقـي سـالم علـى هيئتـه الهسـتيرية وكأنـه يقتـل لـه حبيبـاً وهـذا تحديـداً مـا أثـار شـفقة راجـي وهـيّج أحزانـه فببكـاءٍ مماثـلٍ ودع حبيبَـي قلبـه؛ انـتفض مسـرعاً يـركض إلـى عمـران الـذي شـارك بإضـفاء المزيـد مـن الأسـى علـى اللوحـة الزيتيـة الحزينـة وقـد امـتلأت عينـاه بالـدمع وكـأن السـرطان قـد قصـد أمـه مـن بـين الجميـع فـي هـذه اللحظـة ثـم ماتـت باللحظـة ذاتهـا كمـا لـو أنـه بيـتهم اسـتحال ركامـاً فـي نفـس الوقـت وبشـكلٍ أدق فلنقـل بيتـه حيـث لـم يبـقَ مـن سـكانه غيـره قبـل هدمـه؛ أومـأ لـه راجـي أن اذهـب حيـث تقعـد ليلـى وابـقَ معهـا فاسـتجاب لـه وانسـحب تكتيكيـاً كأنـه آلةٌ ما قد أتمّت عملها بينما كان سالم مستمراً في بكائه

-كنـا سـوياً فـي معركـة اليـوم وكنـتَ تعمـل إلـى جـانبي ترمـي وأرمـي معـك ولـم يتسـنّ لـي الحـديث معـك والتعـرف إليـك؛ أيمكـن لأخيـك أن يعـرف مـا أضـعفك إلـى هذا الحد

بعد تنهيدةٍ حرقت قلبيهما سأله

-أسمعتَ يوماً بعريس الجبل

فـرد عليـه بتلعـثمٍ ملحـوظ وهـو يمسـح لـه بعـض دمعاتـه براحة كفه

-أذكره أعانه الله

-هذا أنا سالم طاقي

-أنت!

-نعم أنا منذ فترةٍ لعينة بعد زواجي من دعاء الغادي بأسبوع استهدفت قذيفةٌ نكراء منزلي الذي تشاركتُ وأهلي سكنه وأودت بحياة زوجتي وأمي وأختي وأولادها الثلاث ليكونوا ضحايا تلك اللعنة وعُرفتُ منذ ذلك الحين بعريس الجبل

-حسبنا الله ونعم الوكيل عندما وصلنا الخبر وقع على مسامعنا كالصاعقة وقد نقلته كل المحطات التلفزيونية ومواقع التواصل <عريس الجبل سالم طاقي من احسم إحدى ضِياع جبل الزاوية في إدلب قد فارق اليوم زوجته حبيبة قلبه بعد زوجهما بأسبوع>

زفر سالم زفرةً أخرج معها الكثير من الألم والحطام داخله وقال بهدوء ما بعد العاصفة كما يسمونه وقد جفّت الدموع على خديه بعد أن تركت أثرها على ملامحه كما اعتادت أن تفعل

-مشكلتنا يا صاحبي أننا نعرف أنصاف الحقائق وننقل أنصاف ما نعرف نتداولها ببهجةٍ كأننا نعلن عن مباراة كرة قدم جديدة أو افتتاح عرضاً للأزياء والموضة في الحقيقة كل عائلتي غادرتني بالطريقة نفسها والتوقيت ذاته غير أنها قصة العاشق والمعشوق قد استهوتهم فسلطوا أضواءهم عليها لا أخفي عليك كثيراً ما آلمني فراق دعاء حبيبتي التي لم يكن لها في الشر يدٌ وما كان يومها لليد جسد حين صارت أشلاءً تحت الركام وتركت يدها تودعني وقد كان طفلاً بيننا أقصى أحلامها إلى جانب سعادتنا الزوجية والأسرية؛ ثمة

شـيءٍ كهـذا لـم يحـدث فقـد ماتـت قبلـه ولكـن مصـابي لـم يكتمـل بعـد والمسـرحية لـم تنتـهِ هنـا وليتهـا فعلـت بـل أكملـت بخبـثٍ وقتلـت فـي المشـهد نفسـه كـل عـائلتي وهنـا قسموا ظهري وقلبي على حدٍ سواء

-رجـلٌ أنـت والقـوة تليـق بـك أكثـر مـن هـذا الهـوان هيـا اعتدل أيها العريس

-عـريس الجبـل يشـتهي موتـاً بـدلاً مـن العـرس وأي عـرسٍ هذا تغيب فيه العروس ويرحل الأهل

-هـوّن عليـك ملتقانـا الجنـة بـإذن الله؛ كـأس المـوت هـذا سيشربه الجميع فطوبى لمَن أحسن سقايته

-الحمد لله على كل حال

-لقـد مضـى علـى حـادثتكم وقتـاً طـويلاً؛ مـا فعـل بـك عمران

-هـيج أبشـع أحزانـي وكسـرني بعـد كسـري الـذي لـن يجبـره إلا المـوت بتلـك الأغنيـة التـي كانـت تغنيهـا أمـي لـي فـي طفـولتي حتـى أغفـو وأحيانـاً تسـتدعيها لإرضـائي وقـت يزعجنـي أي شـيء ثـم انتقلـت لزوجتـي بالمرحلـة الثانيـة فاعتـادت الأخـرى غناءهـا بصـوتها الـدافئ النـاعم ومـع ملامـح عمـران امتـزج الصـوتان فـي ذهنـي واستعادت ذاكرتي كل تفاصيل الحادثة

-لا تحـزن يـا صـاحبي مصـابك لـيس بالسـهل ولكـن الأخف عموماً

-الأخـف! دعـاء هـذه يـا رجـل بهجـة القلـب الأولـى بعـد سـنين الحـب الـثلاث تركتنـي بالطريقـة الأبشـع علـى الإطلاق هذا غير فقدان أمي وحضنها والبقية

-نعـم أخـف فأنـت فارقـت مَـن تحـبهم دفعـةً واحـدة ولكنـك كونـتَ معهـم ذكرياتـك ويمكنـك فـي أي وقـت العـيش مـع تلـك الـذكريات؛ مـا تبقـى لـك مـنهم أحـد أنـت لا شـك تفكـر بالطريقـة هـذه والآن مـا بالـك برجـلٍ رحـل عنـه ولدَيـه فرحـة عمـره التـي لـم تكمـل ثـم ظـل وحيـداً إلّا مـن زوجتـه التـي شـاركته حزنـه بـل وكانـت الجـزء الأكبـر منـه صـدقني يـا سـالم أخـاف النظـر فـي عينيهـا مباشـرةً ففـي كـل مرة أفعلها أتذكر كل شيء وبدقةٍ عالية

القذيفـة والبيـت الـذي صـار ضـحيتها؛ بـلال وعمـر وهمـا في مشهدهما الأخير من مسلسل الحياة المخيف هذا

-جبـر الله قلبـك؛ ولكنـه قلبـي انكسـر وإن لـم يكـن كقلـوب الأمهات إلا إنه قد تحطم

-أجرك على الله أتظنه ينساك!

-ونعم بالله حاشاه أن يفعل

يمتلـئ المـرء حـد الانفجـار وحـين يبلـغ الأسـى ذروتـه يكـاد أن ينفجـر كبركـانٍ ثـار بفجـواتٍ هائلـة فـي أول موقـفٍ يحصـل وهـذا مـا حـدث مـع سـالم حـين تصـدّع كالجبـل أمـام عمـران ونثـر شـتاته ومـا تبقـى مـن أشـلائه علـى مـرأى مـن راجي الذي لمس فيه بعض ألمه.

(١٣)

-بلال أبوك منطفئ نعم هنا في رأسي ما يخبرني أن أبي قد تعب وانهار وأمي كذلك الأمر

-طبيعيٌ جداً هذا ومتوقع بتأثير الظروف التي توالت على رأسه فقدنا وخراب البيت الذي حرق سنين عمره وشبابه يبنيه؛ ذكرياتٌ مبعثرة هنا وهناك والأقسى من ذلك كله انهيار أمي التي لا تكف عن النواح فكثيراً ما يمر بها طيفنا والخطر يحوم حولهم يحاوطهم من كل جانب

-أتعرف يا بلال لو أني مكان أبي لأنجبتُ ولداً بأسرع وقتٍ ممكن ينسيني مَن رحل ويخفف عني ألمي وريما يحمل معي بعض الأعباء التي تتعب كاهلي

-النسيان شيءٌ لا وجود له إلا في الكتب حتى الكتب تنسى يوماً مرورك ولن تدعك تنساها حين يتعلّق الأمر بالأبناء فالذاكرة تصبح أقوى ما يمكن.

لا يمكن لأي اثنين أن ينسا ابنهما فكيف وإن كانا راجي وليلى فهما لا يريدان نسياننا ويخافون أن يفعلوا ذات ليلة

-دعك من فكرة النسيان فهي صعبةٌ فعلاً إن لم تكن مستحيلة ولكن الإنجاب لا شك يخفف الألم ويحسن الحال إنه فكرةٌ معقولة في مثل ظرفهم

-مـا بـك يـا أخـي! مثـل ظـرفهم! أيـن تنجـب أمـك فـي المغـارة وأي جنـينٍ هـذا سيصـمد تسـعة شـهورٍ فـي رحـم أمـك وهـي فـي تلـك المغـارة البـاردة والطعـام الـذي يُقـدم للسـجناء أفضـل بـألف مـرةٍ مـن تلـك الوجبـات الفقيـرة البائسـة التـي يحصـلون عليهـا ثـم فلنفتـرض أنـه غـامر وعـافر حتـى وصـل الـدنيا الـدنيا كيـف لوليـدٍ أن يحتمـل بـرد المغـارة وتلـك الأصـوات التـي تطالـه مـن كـل جهـة قذائف صواريخٌ وبراميل

-لطالمـا سـمعتُ فـي حيـاتي بمَـن يحـوّل البحـر طحينـةً والآن لأول مـرة أقابـل مَـن يفعـل العكـس فتسـتحل الطحينـة معـك بحـراً تفـاءل يـا أخـي يعـيش كمـا يعـيش الجميع مع الكثير من الصعوبات التي طاردتنا قبله

-لـو شـاء ربـك أن يجعـل بينهمـا ولـداً لفعـل وربمـا فـي هـذا خيرٌ لهما لا بل لا بد من الخير كله في ذلك

-نحن نعيش الآن أليس كذلك أم أننا في عداد الموتى!

-يـا إلهـي كـم يحتـل السـؤال هـذا فكـرك؛ أحيـاء يـا عمـر وإلا كيـف كنـت سـتحدثني وأنـت ميـت؛ لا مـانع ربمـا تتحـدث كمـا يفعـل النـائم فـي نومـه دون وعـيٍ منـه ولكننـي ميتٌ أيضـاً فقد انتقلنـا سـوياً إلـى هـذا المكـان؛ لـو أنـك ميتٌ تهـذي وأنـا ميـتٌ أسـمع فكيـف لميـتٍ أن يفهـم سـؤالاً والسؤال الأهم كيف له أن يجيب عليه بالتفصيل

-لن تكف عن فلسفتك!

-لن أعود إليها دونك الجواب المنطقي الذي تريد ضمن هذه الآية "ولا تحسبنّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون"

-حسبك أخي ولكن أحياء هذه تذكرني بالحياة هناك في الجبل وكان الجميع يسميها حياة فشككتُ بأن هذه لم تكن حياة

-كلاهما حياة والأولى تختلف عن الأخرى كلياً فحياتنا هذه السرمدية لن يعيشها كل مَن مات ألا تلاحظ في الآية الكريمة شرطاً للوصول لحياتنا "قتلوا في سبيل الله"

-لا إله إلا الله؛ لم أكن يوماً نقطةً في بحرك ولنا العمر نفسه أشك أحياناً أنك سبقتني بالنزول إلى الدنيا ببضعة ثواني هل استطاعت الدنيا أن تعطيك كل هذا بالثواني تلك! إن كان كذلك فلي المبرر للفارق الكبير بيننا

-لا علم لنا إلا ما قد منحنا إياه الله فلنحمده قبل كل شيء ثم ماذا عنك وقد تأخرت عني بضع الثواني نفسها لتلحقني بقلبٍ رقيقٍ طيبٍ يسكنه حبٌ لو عشتُ آلاف السنين لن أبلغه هل استطاع رحم أمك أن يمنحك كل هذا الحب بالثواني تلك!

-جبر الله خاطرك

-جبر الله قلبَينا وكسْر أبوَينا جبر الله تصدّع جبلنا

-اللهم آمين

(١٤)

انشق الصبح ولا دلائل على قدومه في تلك المغارة المكتظّة بالناس فالعتمة نفسها ليلاً كان أو نهار والبرد ذاته في كليهما؛ ثمة صوتٍ لأذان الفجر لم يُسمع إلّا إنه راجي حين ينام على مشروعٍ ما سينفذه في الصباح فإنه يعمل كساعة غرينيتش حيث استيقظ في الخامسة وخرج لتغتاله أشعة الشمس الحادة الأولى؛ غسل وجهه وتوضأ بغية الصلاة ما إن التفت إلا ووجده على يمينه يفرك عينيه بنشاطٍ غريب

سأله عمران الذهاب معهم هذا الصباح

-لا أنت صغير وجسدك لا يحتمل؛ أن تبقى مع ليلى وسلمى أفضل لك ولهن

-لستُ صغيراً بل رجلاً دعني أثبت لك ثم جسدي هذا الذي لا يحتمل! وكأنه سالم الذي يكبرني بسنوات ذو بنيةٍ جسديةٍ خارقة أنا أقوى منه صدقني

-ونعم الرجل يا عمران؛ أولاً بينك وبين سالم عشر سنوات على أقل تقدير ثم إنه تجرّع من الألم ما يكفي ليصير حاله كما ترى إياك والكلام عنه بالطريقة هذه وتحديداً أمامه

-حسناً لن أتحدث عنه أبداً إن وعدتني أن تأخذني معك فأنا أيضاً من أبناء الجبل

-وتشترط!

أن يـأمن الرجـال علـى نسـائهم وأنـت معهـم خيـرٌ مـن ذهابـك لا تقـدر علـى مسـاعدتنا ثـم إن ليلـى التـي تحبـك كـبعض أولادهـا قـد تألمـت وكُسـر قلبهـا بفقـدها ولـدَيها لا أخشـى عليـك المـوت فتفقـدك أنـت الآخـر الأعمـار بيـد الله ولكننـي أردتـك جنبهـا مواسـياً قلبهـا المكلـوم؛ ألا يمـون عليك عمك راجي

-كحبـي لوالـدَيّ أحببتكمـا؛ أرح قلبـك وطمئنـه لـن أتـرك بابـاً مفتوحـاً واحـداً ليـدخل مـن خلالـه الحـزن قلبهـا؛ ابنهـا الوفي معها لا تقلق

-حفظـك الله يـا هديـة الله سـبحانه يرسـلنا بعضـنا لـبعضٍ رحمات

-وأنتما رحمتي التي أرسلها ربي بعد كل مصائبي

بدأت الرجال تستيقظ تباعاً وقد حان موعد الصلاة

-مـا رأيـك أيهـا الرجـل العمرانـي أن تصـلي إمامـاً فينـا؛ توضأ ونحن بانتظارك

-لكنك أكبر مني وهناك مَن هو أكبر من كلينا أيجوز!

-يمكنك فعلها لا تأخذها حجة هيا فالكل ينتظرك

توضأ عمران وراح يكبر ويتجهّز للصلاة وعلى يمينه راجي متأخراً عنه بضع خطوات؛ بدأ يرتل الصغير ما حفظ من القرآن بصوته العذب ثم أبكاه صوته لأول مرة يقرأ ويبكي فيبكي من ورائه الجميع؛ بكى راجي ابنَيه بلال وعمر وبكى سالم فرحته التي لم يُكتب لها أن تكتمل بكى كل اللذين فقدوا وقصّروا بكوا تقصيرهم وضعفهم ما إن انتهوا من صلاتهم إلا ووجوههم ملطّخةٌ بالدمع المُستنزف وانطلق بعد الصلاة الرجال بمعركةٍ جديدة بأملٍ جديد على أنه النصر آتٍ لا ريب.

(١٥)

-ريح الجبل يعبر روحي يا بلال رائحة أمي وألوان أبي تسري هنا

-لا تبالغ

-ليست بالمبالغة إنهم يقتربون

-ما هذا إلا انعكاسٌ لاشتياقك

-ربما ولكنني مرتاحٌ ولستُ بالخائف؛ الطمأنينة تسكنني

-الحمد لله على راحة قلبك؛ أخبرني يا صاحب الحاسة السادسة أم أقول السابعة كيف ترى أحوال الجبل

-وكأنك لا تعرف

-ما تراه أعمق من رؤياي فغالباً ما تغلب البصيرة البصر

-رماديٌ جوها لا يستقر على لون تهدأ تارةً حربها ثم ما تلبث أن تشتعل وتتوهج؛ أظنهم وقت السلام يعتدّون للحرائق ويحضرون لها من بعيد تلك التي تحرق كل أخضرٍ قبل اليابس من جبلنا ولكن أهل الجبل والكثيرون معهم لن يبرحوا على هناءٍ حتى يتخلصوا من كل طاغٍ فهم يفعلون كل ما بوسعهم لاسترداد حقنا وهذا يزرع فينا الأمل

-الحمد لله الجهاد فريضةٌ لا يجوز تجاوزها لو كنا معهم كنتُ سأحمل السلاح رغماً عن الجميع
-أتعتقد أنهم كانوا سيمنعوننا لو فعلنا

-بالتأكيد فأمي ستبكي وتلطم لعنادنا وأبي سيقنعنا بكل دبلوماسية بأن نعدل عن قرارنا فعمرنا الصغير لا يسمح لنا

-كان بالإمكان حل المشكلة

-كيف نحلها؟

-أخرج مع أبي حاملاً سلاحاً قد تدربتُ على حمله وتبقى مع أمك تحميها وترعى قلبها

-فكرةٌ معقولةٌ جداً لو طرحتها بطريقةٍ أصح تبقى مع أمك وأرافق أبي فأنا دائماً ما كنتُ معه وأنت الأقرب إلى أمك

-الحمد لله أننا لم نكن هناك؛ أجدني وإياك على خلافٍ ونحن هنا فكيف وإن كنا سنفعل ذلك كلٌ منا يحب الجهاد ويكره كسر قلب أمه

-تماماً كنتُ أحلم بحمل السلاح في وجه العدو الذي طالما سمعنا عن إجرامه ورأيناه كرهناه وتمنينا لو أنه رجلاً واحداً نضرب عنقه وينتهي الأمر

-سينتهي ذات يوم عندما يشاء الله أن ينهي الاختبار كما أخبرتني ليلة أمس

-إن شاء الله

(١٦)

-هيا يا سلمى كفاكِ نوماً فقد ذهب الرجال كلهم؛ علينا أن نعدّ لهم طعاماً مميزاً بعد تعبهم وعملهم الشاق أعادهم الله لنا سالمين غانمين

-لحظة فقط.... سالم أين لا تقولي إنه صحبهم

-بل فعل

-لا.. أنتِ تكذبين

صدمتها ببكائها وهي تندب وتلطم فقد بكت بحرقةٍ لم يسبق لها أن فعلت حتى بعد موت بلال وعمر وقد كانا رفيقَيها إلى أقصى حد

-اهدئي

-كيف أهدأ لماذا سمحتم له أما رأيتم ضعفه أين عيونكم أين قلوبكم وعقولكم أين؟

-انفجرت في وجهها كعبوة غازٍ قد امتلأت فوق طاقتها ببكاءٍ هستيريٍ جنوني كحال العشّاق والنيران تتقد في أحشائهم أما الأخرى فقد تسمّرت بمكانها وراحت تتلعثم بجوابها بعد أن تفاجأت بفعل سلمى

-أبى كل محاولاتنا في الرفض ولم يأبه بحالته لسببٍ وحيد <رجلٌ وقد عاهد نفسه وأهله ألا يسكت عن حقه وحقهم>

-مع ذلك لا مبرر لكم للسماح له بالالتحاق بجيشهم

-حسبكِ يا سلمى لماذا سالم دوناً عن الجميع فراجي هناك وكل الرجال معهم ألا تنتبهي أننا نساءً وأطفالاً وحسب أم تريدينه ينضم لأولئك الشيوخ وهو أقدرهم على الجهاد

-لأنه أخذ حصته كلها

-أي حصة

-حصته من الألم والفقد ثم تقصدين لماذا أهتم به وإن كان جوابي سيصدمكِ فإنني أحببته

-أجننتِ

-إن كان الحب جنوناً فقد فعلت

-أتهذين! ما هذا الهراء الذي تتفوهين فيه

-الإنسانية ليست هراءً يا ليلى

-أحببته هذه ليست مجرد حروف تنثرينها أينما شئتِ هذه حياة وما الحياة إلا أحببته هذه فلا ترمينها في غير موقعها

-أحببته لم أقل أشفقتُ عليه

-لكنكِ ستجرحينه إن كنتِ على نية إخباره

-بل سأعوضه

-وتتركيه بنصف الطريق!!

-وكأنه حدثٌ من رواياتكِ التي سبق لكِ قراءتها لمرات فحفظتيه كحفظك اسمكِ؛ لا لن أتركه

-كيف ستكون حياتكِ معه إن وافق أفكرتِ بها أم أنها لا تعنيكِ

-كحياة كل المتزوجات

-لن تكون كذلك

-خذي التشاؤم هذا وابتعدي أريد أن أرتاح أشعر بجسدي متكسراً ووخزٌ عنيف يضرب خاصرتي

-أعراض الحب ربما!

-فلتسخري كما تشائين

-ستكونين الطبيبة لجراحٍ لا دواء لها ستكونين دعاء التي لن ترحل سيراها فيكِ أما أمه فلن تقدري على إزاحتها من ذاكرته وقلبه وأخيراً لن تكوني أبداً أهله الذين فقدهم ربما سيرى الحرب فيكِ ويجدكِ البديل الذي قدمته تلك اللعنة عوضاً عن أحباب قلبه

-سأتزوجه

-لن أدعكِ تفعلين إن كان هو فعلاً مستعداً لاستبدال ماضيه بزهرة عمرك وربيع شبابك

-ما الذي يمنعه

-أن يكون للحادثة ضحية خيرٌ من أن يقع لها ضحيتان

-يا الله؛ ليلى

-أنتِ بخير سلمى ما بك

وضعت سلمى يدها اليمنى التي لم تكف ثانية عن رجفتها على خاصرتها وأطاحت بها كلمات ليلى أرضاً فجحظت عيناها أما وجهها فكأن الليمون هاجر من فلسطين يلجأ إلى وجهها وكفَيها فقد اكتسى وجهها لونه الأصفر وعم الشحوب جسدها وسرعان ما عُقد لسانها

-سلمى لا تخيفين رفيقتك كما تشائين سيكون كل شيء كما تخططين

سلمى أتسمعين كلامي؛ يا ناس يا ساكني المغارة بالله عليكم ساعدوني

سلمى؛ سلمى

ركض عمران الذي رآها مُلقاةً أمامه وليلى من فوقها تبكي بخوفٍ رهيب

-عمران أتعرف سعيد الذي أسعف سلمى بالأمس قد خرج معهم صباح اليوم الحق بهم ولا تعد إلا به فحالتها خطيرة على ما يبدو

-حسناً انتظرونا

-أحضره معك في أي حال

-سوف أفعل هدئي من روعك لن يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا

-أتعرف أين تجده

-نعم لا تقلقي

-لا تتأخرا؛ مع السلامة

ركض عمران نحو البعيد ظل يركض ويركض ثم يهدأ يلهث من شدة التعب والعطش ويتابع ركضه حيث وجد سعيد أخيراً بين الجموع وقد أوشك الرصاص أن يخترق أذنَيه؛ كان كلما اقترب علا صوت الرصاصات المبعثرة فاتخذ من صوته بوصلته؛ كاد أن يقول شيئاً ولكنها الكلمات ظلت عالقةٌ في حلقه فأومأ له وسحبه من يده وما كان لسعيد أن يرفض فملامح عمران توحي بالخطر بينما ليلى تسرح في نظرها لسلمى المُغمى عليها أمامها وقد انتظم نبضها لدقائق ثم عاد لاضطرابه يتسرع تارةً وأخرى يتباطأ

-يا إلهي كم تأخر عمران

سلمى أنتِ معي! أتسمعين صوتي؛ بالله قومي لا تقلقيني أكثر

-رغم إلحاح ليلى إلّا إن سلمى قد فقدت وعيها بالكامل؛ لحظات وبدأت تأخذ شهيقها بأسلوبٍ مخيفٍ جداً وكأن الصخرة التي وُضعت على صدر بلال الحبشي قد أعادت الكرة معها ثم تحول أصفر وجهها لأزرقٍ غريب بعد أن هربت منه الدماء عادت إليه مكثفةً بلونها الجديد الذي أشبه زرقة البحر وأشد عمقاً من لون ثوبها الذي ترتديه أما ليلى فقد فقدت اتزانها لمجرد تفكيرها بفكرة فقدها سلمى كما سبق لها وأن فارقها حبيباها وجنتها على الأرض

-أين أنت يا عمران كل هذا الوقت قد تأخرت كثيراً؛ خالتي أم سعيد ابقي معها لو سمحتِ ريثما أستعجله سأنظر أمرهما وآتيكِ

-أنتِ يا ليلى! أين تذهبين؟؟

-تأخر كثيراً ربما تاه في الطريق قد زاد من قلقي هو الآخر سأذهب حيث دلني بالأمس راجي سألتقيهم هناك وأعود معهما

-أذهب أنا عوضاً عنكِ وابقي مع ابنة عمك

-لا يا خالتي أنا أسرع وعندكِ من الخبرة ما لا أملك؛ هذه سلمى بين يديكِ وأمانةٌ عندك

-إذن أسرعي

-لن أتأخر بإذن الله استودعتها عند الله

اتجهت ليلى حيث أخبرها راجي بمكانهم وركضت في الجهة نفسها على أمل أن يكون سعيد بمجموعة راجي ذاتها حيث شرح لها فيما مضى أنهم يتفرّقون على مجموعاتٍ شتى؛ لم تضل الطريق كما ظنت بل كان أكثر يسراً وسهولةً مما توقعت إلّا إنه صوت القذائف الوارد والرصاص الصادر كاد أن يصرعها فحين اقتربت أكثر راحت تتقدم خطوةً وتتأخر خطوات ثم التقت به أخيراً وقبل أن يسألها راجي عن سبب قدومها الذي فاجأه وأقلقه حيث لم يتسنّ لها هي الأخرى أن تسأله عن سعيد فيما إذا كان معه أو في موقعٍ آخر يعرفه حالت القذيفة بينهما لتجمعهما في مكانٍ آخر

وصل عمران مع سعيد كلٌ يتكئ على كتف الآخر ويتخذ منه عكازاً له تحمّل سعيد متاعبه بصعوبةٍ بالغة وهرول إليها فارغ اليدين كما لم يُرَ طبيبٌ قط واقترب يتحسّس بيده نبضاتها المتهاودة فاختلط عليه نبضه بنبضها لكنها وحسب خبرته بدت له من الأحياء؛ طلب الماء الذي رشفت أمه منه على وجه سلمى ليأخذ بعضه ويمسح يدَيها فيه ويقوم بتدليكها؛ وبصدماتٍ كهربائية فعلها يدوياً بالحال استطاعت أن تتنفس بشكلٍ أكثر طبيعيةً من ذي قبل

-ما سبب تعبها هذا

-الإرهاق يا أمي ثم إن إصابتها الأولى لم تبرأ منها بشكلٍ كامل وقد أخفيتُ عليها قصة الشظية التي ظلت عالقةً في خاصرتها اليمنى إذ استحال استئصالها وقتذاك إلّا إن البرد مع التدهور النفسي قد حركها فانهار الجسد بالكامل تحت تأثيرها

رد على أمه ويداه تضغطان حيث استقرت الشظية حتى تمكّن من ثباتها لوقتٍ محدود فلا بد من عمليةٍ جراحيةٍ قريبة يتم فيها إخراجها

اعتدل منظرها إلى حدٍ ما وعاد لونها الطبيعي شاحبٌ إلى حدٍ معقول ودقائق مضت قبل أن تفتح عينيها وقد سُلب سوادهما حتى شربت بعض الماء من بين أصابع سعيد الذي بات كميتٍ قد رُدت له روحه وقد ارتوت ولا يزال الشعور بالتعب يتملّكها وهي تسألها

-أين ليلى

انطلق عمران وأتاها بطعامٍ لم تكن تشتهيه فقدّمه لها وأعانها مع ابتسامته المعهودة التي لا محل لها في ظل ظروفه.

(١٧)

-بلال انظر النور هناك

انتفض بلال لنبرة صوت عمر المفاجئة والتفت حيث أشار له بإصبعه

-مَن هناك؟

قال بتوترٍ يمتزج بالسعادة والقلق فقد مرت بذاكرته لوحات أبيه وشجيرات عمر؛ بركته الصغيرة عذبة الماء وخبز أمه ذو الرائحة التي تفوق رائحة العطور جمالاً؛ أغنام جيرانهم وصوت ديكهم الصباحي أما عمر فقد اتسعت عيناه كما فعل قلبه وراح يحدّق بالنور الذي بدأ يقترب منهم شيئاً فشيئاً ثم نادى بصوتٍ قاطعه نبض قلبه

-إنها أمي يا بلال وذاك أبي إنهما هنا

-كيف ميزتهما لا أرى سوى الضوء المنبعث من تلك الجهة

فرك عينيه براحتَي كفَّيه علّه يرى ما قد رآه عمر

وبالفعل تمكّن مؤخراً من رؤية المشهد كاملاً

-إنهما هنا يا عمر؛ أبي أنت هنا! أمي أسمعينا صوتك

-أنتما هنا أم أننا نتخيل؛ أماه حبيبكِ عمر قد اشتاق حضنك اقترب أكثر يا أبي

قال عمر بصوتٍ مبحوح وكأنه في منامٍ جميل لا يريد أن يفيق منه أبداً

-عمر أتراهما فعلاً!!

-نعم إنهما في مركز النور قادمَين إلينا

-الحمد لله هذا يعنني أنني أراهما بعينَي لا بقلبي وذهني

-أماااااه

-أبتاااااه

-هنا معكما تأخرنا عليكما!

-قدر الله أن تبلغا ملاذكما في هذه اللحظة هذا النعيم حرفياً لا شيء ينقص هنا لا غصة لنا إلا غيابكِ وأبي

أجابها عمر والضحكة ترتسم على وجهه فتزيد جماله جمالاً فالدفء كله قد لحق بهما أما بلال فركض لحضن راجي يسأله بمنطقٍ بحت

-كيف تركتما الجبل يا أبتي أود أن تكون بمَن فيها بخيرٍ وسلام

-كما فعلتَ وأخوك لا شيء يتغير في تلك الأرض سوى البيت الذي مات معكما قد استبدلناه بمغارةٍ باردةٍ فارغةٍ إلا من الناس حتى الفئران تتمنّع عن زيارتها فقد سبقها الفقر وسكنها الخوف معنا

فرد عمر بأسى متأثراً بوصف أبيه

-ماذا لو أنها حرباً كهذه لم تندلع في الجبل كما لو أنه ظل في ريعان شبابه كفتاةٍ حسناء يشتهيها الجميع ولم

يمسسها أحدٌ بسوء ما الذي كان سيحصل لو أنكما ما عرفتما تلك المغارة اللئيمة

بطبعه الجدي أجابه راجي

-بكل بساطة ما كنا هنا

فأكملت ليلى شارحةً كلام أبيه المختصر

-لولا الحروب التي تنشب في البلاد الجميلة فتقلبها رأساً على عقبٍ؛ لولا أننا ننجب وتسرق الحرب ألادنا فنصبر لولا البيوت المهدّمة والمغارات والمخيمات العنيفة المظلمة ما كان لنا أن نحظى

بهذه المكانة وما كان لك وأخيك أن تسبقانا لهذا الهناء

استأنف بلال

-ما هذا إلا الخير الذي اختاره الله

فأجاب عمر

-الحمد لله الذي لم يحرمنا عطاءه؛ الحمد لله دائماَ

ثم سكت يصغي لتلك الضحكات التي تطوف حولها وهمسٌ خفيفٌ لأطراف حديثٍ مخملي قد تفلّت من قبضتهما وركض إليهم فالتفت راجي ثم ليلى بفعل ولَدَيهما ليجدوه مع زوجته عريس الجبل سالم الذي قطع حديثه مع دعاء ليلة أمس فعاد ليكملاه في بيتهما الجديد.

تمت بفضلٍ من الله

آخر مسودة _الخميس ٢٠٢١\٩\١٩

جبل الزاوية: اسم سلسلة جبلية تقع في إدلب في سوريا؛ يقع في الجزء الشمالي من جبال الكتلة الجبلية الكلسية في شمال غرب سوريا- وتُعتبر من أكثر المناطق المُستهدفة لدى النظام السوري في المرحلة الزمنية الأخيرة.

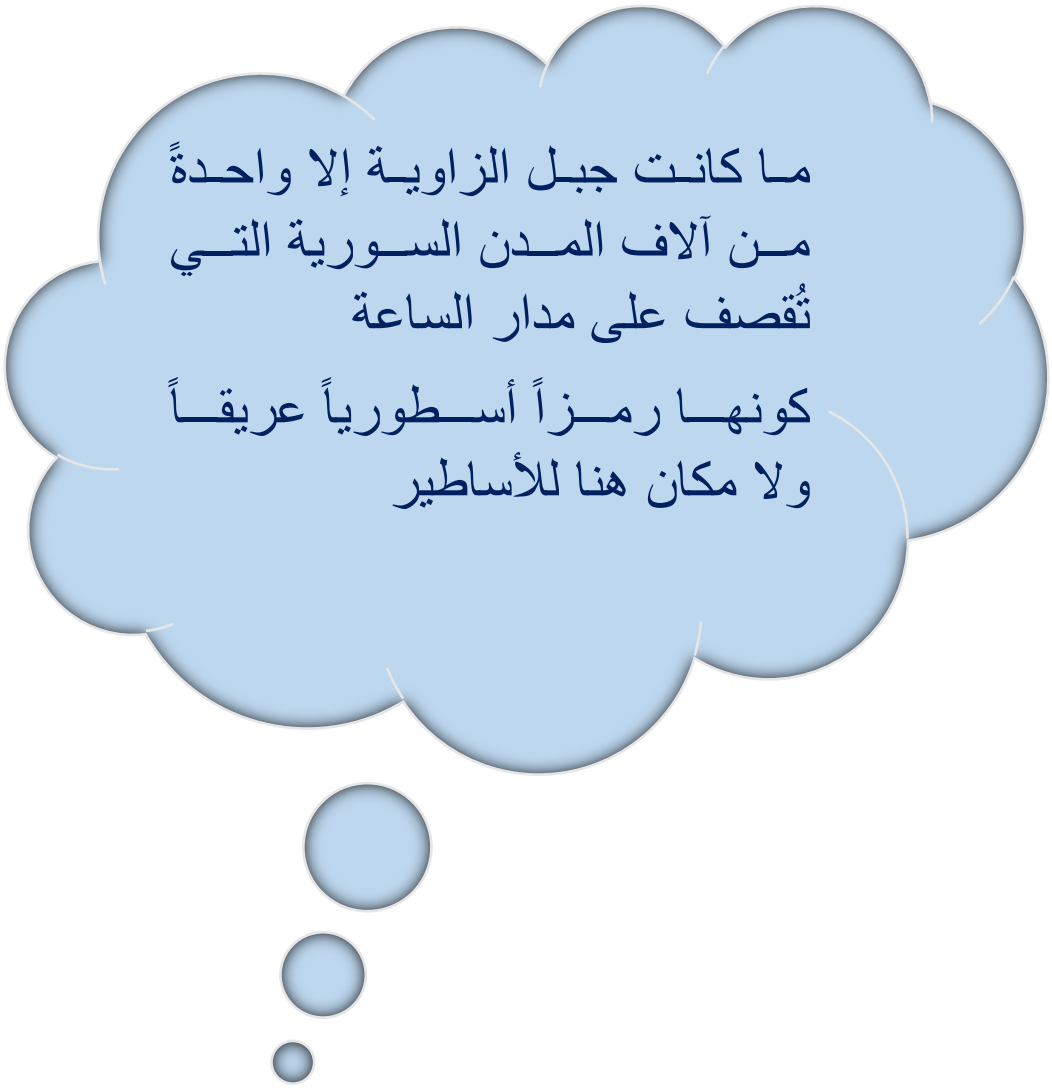
مـا كانـت جبـل الزاويـة إلا واحـدةً
مــن آلاف المــدن الســورية التــي
تُقصف على مدار الساعة
كونهــا رمــزاً أســطورياً عريقــاً
ولا مكان هنا للأساطير

تحمل الرواية من خلال عمر وبلال رسالةً لكل أمٍ فقدت ابناً من أبنائها ألا تحزني فابنكِ في مكانٍ أجمل وأقل صخباً من مكانك

لم تكن مسألة شهيدَي جمعهما مكانٌ واحد إنما هي في الحقيقة قضية كل مَن خدشه الموت وهو يعبر محبيه لتقدم له الدواء والأمل

حين ترتّب الصفحات واحدةً تلو الأخرى وبحرصٍ شديدٍ على ترقيمها الدقيق خوفاً من الموت الذي سرق من حولك الكثيرين؛ توصي مَن هم حولك بأن يكملوا ما بدأته في حال كنتَ في المكان الآخر فطوبى لك أنتَ في سوريا

ورد عن مالك أن الروح تكون مُرسلة تذهب حيث تشاء وقال كعب: إن روح المؤمن في السماء السابعة في عليّين والكافرين في الأرض السابعة في سجّين؛ وجاء عن ابن حزم وغيره أن الروح تستقر بعد الموت في المكان الذي كانت فيه قبل خلق الجسد وقال ابن عبد البر إن أرواح الشهداء في الجنة وأرواح المؤمنين غير الشهداء في القبور كما قال ابن شهاب إن أرواح الشهداء معلّقةٌ بالعرش كالطير وتذهب إلى الجنة

الكثير من الأقوال حول استقرار الأرواح بعد الموت والعلم عند الله وحده عموماً فالقصة خيالية وحسب.